

تفسير البحر المحيط

@ 153 @ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنَ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَمَا هَازِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَالْعَيْبُ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَآهَىٰ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَوِ كَانُوا يَعْلَمُونَ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ كَدَّ دَعَاؤُا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الدَّيْرِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبِاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَطْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْعَالَمِينَ . . }

أكثر المفسرين ذهبوا إلى أن قوله : { فِي عِبَادِي } الآية ، نزلت فيمن كان مقيماً بمكة ؛ أمروا بالهجرة عنها إلى المدينة ، أي جانبوا أهل الشرك ، واطلبوا أهل الإيمان . وقال أبو العالية : سافر والطلب أوليائه . وقال ابن جبير ، وعطاء ، ومجاهد ، ومالك بن أنس : الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية ، ويلزم الهجرة عنها إلى بلد حق . وقال مطرف بن الشخير : { إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ } عدة بسعة الرزق في جميع الأرض . وقيل : أرض الجنة واسعة أعطيكم . وقال مجاهد : سافروا لجهاد أعدائه . { فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ } ، من باب الاشتغال : أي إياي اعبدوا فاعبدون . وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى الفاء في فاعبدون ، وتقدم المفعول ؟ قلت : الفاء جواب شرط محذوف ، لأن المعنى : إن أرضي واسعة ، فإن لم تخلصوا العبادة في أرض ، فاخلصوها في غيرها . ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول ، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص . انتهى . ويحتاج هذا الجواب إلى تأمل . .

ولما أخبر تعالى بسعة أرضه ، وكان ذلك إشارة إلى الهجرة ، وأمر بعبادته ، فكأن قد يتوهم متوهم أنه إذا خرج من أرضه التي نشأ فيها لأجل من حلها من أهل الكفر إلى دار الإسلام ، لا يستقيم له فيها ما كان يستقيم له في أرضه ، وربما أدى ذلك إلى هلاكه . أخبر أن كل نفس لها أجل تبلغه ، وتموت في أي مكان حل ، وأن رجوع الجمع إلى أجزائه يوم

القيامه . وقرأ علي : { تُرْجَعُونَ } ، مبنياً للفاعل ؛ والجمهور : مبنياً للمفعول ،
بتاء الخطاب . وروى عن عاصم : بياء الغيبة . وقرأ أبو حيوه : { ذَائِقَةٌ } ، بالتنوين ؛
{ الْمَوْتُ } : بالنصب . وقرأ : { لَنْدِيَوْئَنْدَاهُمْ } ، من المباءة . وقرأ علي ،
وعبد الله ، والربيع بن خيثم ، وابن وثاب ، وطلحة ، وزيد بن علي ، وحمزة ، والكسائي : من
الثواء ؛ وبواً يتعدى لاثنين . قال تعالى : { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } مقاعد للقتال ،
وقد جاء متعدي بالام . قال تعالى : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ }
، والمعنى : ليعلن لهم مكان مباءة ، أي مرجعاً يأوون إليه . { غُرَفًا } : أي
علالي ، وأما ثوى فمعناه : أقام ، وهو فعل لازم ، فدخلت عليه همزة التعدية فصار يتعدى
إلى واحد ، وقد قرء مشدداً عدى بالتضعيف ، فانتصب غرفاً ، إما على إسقاط حرف الجر ،
أي في غرف ، ثم اتسع فحذف ، وإما على تضمين الفعل معنى التبوئة ، فتعدى إلى اثنين ، أو
شبه الطرف المكاني المختص بالمبهم يوصل إليه الفعل . وروي عن ابن عامر : غرفاً ، بضم
الراء . وقرأ ابن وثاب : فنعم ، بالفاء ؛ والجمهور : بغير فاء . { السَّذِينَ صَادِرُوا }
: أي على مفارقة أوطانهم والهجرة وجميع المشاق ، من امثال الأوامر واجتناب المناهي .
{ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } : هذان جماع الخير كله ، الصبر وتفويض الأمور إلى
الله تعالى .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، من أسلم بمكة بالهجرة ، خافوا الفقر فقالوا